الصديق الراحل

فليكس فارس

١٨٨٦ – ١٩٣٩

للأستاذ كامل محمود حبيب

حملتك الأمواج غصناً من الأر ز كبيراً يفوح منه العبير
فتعاليت في الجلاد صبوراً علم الناس كيف يحيا الصبور
وتراميت من سما المجد صقراً علم الدهر كيف تقضى الصقور

فليكس فارس

عزيز على النفس أن تتحدث عنك ميتاً ، وقد كنت « بالأمس » ملء القلب، ملء الفؤاد، ملء السمع والبصر ملء هذه الحياة الفارغة ...

انطوى هذا الفكر الوقاد ، وانطفأ هذا القبس اللامع ، وانحبس هذا الصوت الرنان ، وثوى العبقرى الثائر فى رمسه ، وفى قلوب صحابه آهة عميقة وفى أعينهم عبرات حرّى

هذا النغم الحادى كان حلواً تتطرب له النفس !

هذه النفس العالية كانت طيبة رفافة لم تشبها نزوة من نزوات الكبرياء !

هذا القلب كان كبيراً ... كبيراً لم تفسده ترهات الحياة !

ففى ذمة الله أيها النغم الحادى ، وأيتها النفس العالية ، وأيها القلب الكبير !

فليكس فارس ! هذا هو الرجل !

أخذ العلم من كتاب الحياة فما تشرب روح المدرسة ، وفى المدرسة عسف وظلم ، وفيها إغضاء عن النبوغ الفطرى ، وفيها كبت للمواهب المتأججة، فسما بنفسه، وعلا بروحه، وتفتح الكمّ عن زهرة يانعة وهو ما يزال عند التاسعة عشرة ، شاباً ريق الشباب وفتى غض الفتوة ؛ فدخل المدرسة — أول ما دخل — أستاذاً للبيان العربى فى مدرسة عبية ؛ ثم لمعت أول مقالاته الأدبية فى جرائد سوريا ولبنان .

وأعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ فتدفق البيان على لسانه، وتراءى خطيباً تتقطع دون بلاغته ألسنة الخطباء ، فتألق نجمه . ثم ألقى عن نفسه عبء التدريس ليخوض غمار السياسة عضواً فذاً فى جمعية الاتحاد والترقى العثمانية ، واختارته لجنة سالونيك — بعد حين — ليكون عضواً عاملاً فيها يؤسس الجمعيات الدستورية فى أرجاء البلاد .

وجرفته السياسة فى تيارها فأصدر جريدته «لسان الاتحاد» تتحدث عن نوازع نفسه، وآمال قلبه فى السياسة والأدب جميعاً . ثم ... ثم عُيِّن أستاذاً للخطابة والأدب الفرنسى فى المدرسة السلطانية بحلب .

واستعرت نار الحرب العظمى فما برح مكانه حتى دخل الجيش العربى البلاد فتخيرته الحكومة الهاشمية سكرتيراً لحكومة حلب ، ثم مديراً عاماً لإدارة حصر الدخان ، فما شغله المنصب عن أن يقوم — بين الفينة والفينة — خطيباً يدعو إلى الوحدة العربية وإلى رفض الانتداب الأوربى .

وفى سنة ١٩٢٠ أبحر إلى أمريكا يطلب إلى المهاجرين من بنى وطنه العودة إلى بلادهم ، وقد عزّ عليه أن ينأى جماعة من أفذاذ قومه عن ديارهم أحوج ما تكون إليهم ، وفيهم العالم والصانع والتاجر ، فقضى سنة يضرب فى أنحاء أمريكا يخطب للمهاجرين بالعربية مرة وبالفرنسية أخرى ، علّهم يثوبون ؛ وهناك تعرف إلى أعضاء الرابطة العربية جميعاً ووصل بينه وبينهم برباط من المحبة ، وتوثقت بينه وبين جبران خليل جبران العبقرى الفنان صلات من الهوى والصداقة .

وعاد إلى لبنان وفى خياله أن يستطيع أن يقنع الجنرال بيرو المندوب السامى الفرنسى بوجوب التفاهم مع العناصر الوطنية ، وتشجيع المهاجرين على العودة إلى وطنهم . ومال الجنرال بيرو إلى رأى الأستاذ غير أن الحكومة الفرنسية رأت أن ترسل الجنرال فيجان ليشغل منصب الجنرال بيرو ... فانفجرت الثورة وتطاير شررها هنا وهنالك ، ولكن اليأس لم يجد طريقه إلى القلب الكبير ... قلب الأستاذ فليكس ، فراح يكتب إلى صديقه المسيو جوسران سفير فرنسا فى واشنطن ، وإلى ذوى المكانة العليا

فى فرنسا ، يكشف لهم جميعاً عن خطل السياسة الفرنسية فى بلاده ؛ غير أن صرخاته ذهبت نهب الرياح ، فكبر عليه أن يعمل مع حكومة تسير على مبدأ لا يقرّه ، فنبذها جانباً ، ولبس ثوب المحاماة .

وفى أواخر سنة ١٩٣٠ عين رئيساً للتراجمة فى بلدية الأسكندرية فترك بلاده ومهنته ليستقر فى الوطن الثانى الجميل ... فى مصر ، وليجد هنا أصدقاء أحباء يعوضونه ما فقده فى وطنه الأول

تلك لمحة عاجلة عن حياة الأستاذ الفقيد فيها عظة وحكمة

* * *

لم يكن للأستاذ فليكس أن يكبح جمحات نفسه ، بعد إذ لمس الإخفاق فى وطنه الأول ، وهو قد هبط وطنه الثانى شعلة من نشاط تتقد ، فاندفع يتعرف على جماعة من أدباء هذا المصر ... ثم قرأ للأستاذ الزيات — أطال الله عمره — وجمع أعداد (الرسالة) لا تفوته فيها شاردة ولا واردة ؛ وعكف على دراسة أدب الرافعى — رحمه الله — حين استهوته مقالاته فى (الرسالة) ؛ وترجم له مقالته «رؤيا فى السماء» إلى الفرنسية وعلق عليها ، ونشرها مع التعليق فى غير واحدة من الجرائد الفرنسية ، وأعجب بما هلى الأدب العربى الحديث وتمنى لو رآها

وفى صيف سنة ١٩٣٦ تعرف إلى الأستاذ الرافعى — رحمه الله — وطلب إليه أن يزوره فى داره فى كامب سيزار برمل الأسكندرية فلبى الدعوة وأنا برفقته ... فألفيت رجلاً هادىء الطبع ، طلق المحيا ، كريم الخلق ، جميل الصحبة . وكان وجهه — ونحن فى داره — يتهلل بشراً وسروراً ... وهكذا ابتدأت أول وشيجة بينه وبين أسرة (الرسالة) الغراء ، ومضت أيام فإذا صوت صرير قلمه يرن على صفحات (الرسالة)

ثم انطلق يتلمس الطريق إلى الأستاذ الزيات ويستزيره فى إلحاح . وفى صيف سنة ١٩٣٧ دخل الأستاذ الزيات دار صاحبه فليكس — لأول مرة — وأنا إلى جانبه . يا عجبا ! إننى أرى صاحب الدار يهتز من فرط الفرح كأنه يلاقى حبيباً طال اغترابه ؛ وإنه ليتراءى لى أنه يهم أن يضم الأستاذ الزيات إليه لولا هيبته . وتقدمت الأيام وفى قلب كل منا لصاحبه المحبة والإخلاص والوفاء

عرفنا الأستاذ فليكس فعرفنا فيه الأديب الفذ والشاعر الرقيق ، وفقدناه ففقدنا فيه الأخ الوفى والصديق الصادق

فى ذمة الله ، وفى رحمة الله ... يا صديق !

كامل محمود حبيب

فى بلاط الخلفاء

حماد وهشام بن عبد الملك

للأستاذ على الجندى

ضمّت الكوفةُ فى وقت واحد ثلاثة نفر يُقال لهم : الحمادون(1) ، وهم حماد عَجْرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزِّبْرِقان أو ابن الزبرقان . كان هؤلاء الثلاثة يتعاشرون بثلاثة أجساد تُصرِّفها روح واحدة . ولم يكن غريباً أن يجتمعوا على هذا الود الوثيق ، فقد ألفت بينهم رابطة الأدب ، ولحمة الزندقة ، وآصرة أخرى تُسامِى رضاع الثدى وهى رضاع الكأس ! ولله دِعْبل إذ يقول :

أذكرْ أبا جعفر حقًّا أمتُّ به ... أنى وإياك مشغوفان بالأدب
وأننا قد رضعنا الكأس دِرّتها ... والكأس دُرّتها حظى من النسب

والذى يعنينا من هذا الثالوث العجيب المتّحد فى الأمم والنزعة والهوى والنِّحلة ، حماد بن ميسرة الديلمى مولى بكر بن وائل . كان هذا الرجل آية دهره فى العلم بأنساب العرب وأيامها وحفظ لغتها وأخبارها وأشعارها ، فخلع عليه معاصروه — على بخل المعاصرة وحقدها — لقب الراوية ؛ وهو لقب فخم رفيع لم يمنحه جُزافاً بل انتزعه انتزاعاً عن استحقاق وجدارة

يحدثون أن الوليد بن يزيد سأله : بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : لأنى أروى لكل شاعر تعرفه — يا أمير المؤمنين — أو تسمع به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أُنشَد شعراً لقديم ولا مُحدث إلا ميزت القديم منه من المحدث . فقال الوليد : إن هذا لعلم — وأبيك — كبير . فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير . ولكننى أنشد على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة طويلة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام !

وكأن الوليد استراب بحفظه فقال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشده حتى نال منه الضجر ! فوكل به من يسمع

(١) معجم الأدباء ج — ١٠ — ٢٥٠ — ٢٥٩